نظريات الأدب: 1– نظرية المحاكاة

–تعد جهود النقاد اليونان أقدم الإسهامات النقدية التي وصلتنا في هذا المجال.

– كانت آراء أفلاطون وتلميذه أرسطو تمثل أساسا لأول نظرية أدبية المسماة (المحاكاة) والتي صيغت مبادئها في القرن الرابع قبل الميلاد.

–تدل كلمة محاكاة في معناها اللغوي على التقليد والاحتذاء، وتتضمن معنى البحث عن الأفضل، لأن الأشياء التي تستحق أن نحاكيها هي الأفضل والأكمل عادة.

–ربما نجد آراء قبل هذه الفتر ة حول غاية الشعر كما عند هوميروس أو ارتباطه بالسحرأو ما إلى ذلك أو العلاقة بين الشعر باعتباره مجاز والأخلاق أو الفلسفة، لكنهاركانت مجرد أفكار جزئية وملاحظات.

–تحدث أفلاطون (347 ق.م) عن الشعر في كتاباته التي جاءت على شكل محاورات مثل (أيون) و (الجمهورية) التي لم يكتبها في الأدب بشكل مباشر بل في الفكر والفلسفة وخصوصا في جمهوريته المثالية التي يصنف الناس ويحدد وظائفهم فيها، فكان الحديث عن الأدب والفن والشعر ودوره بشكل عرضي غير مقصور في حد ذاته.

–يرى أفلاطون أن الفنون قائمة على التقليد، لأنه ينطلق من فلسفة مثالية ترى بأن الوجود مقسم إلى عالم المثل وعالم المحسوسات الطبيعية المادية، فعالم المثل يتضمن الحقائق المطلقة أما عالم المحسوسات الذي نعيش فيه فإنه صورة مشوهة للعالم المثالي الأول الذي خلقه الله في أفضل صورة.

–مثل بالشجرة الأولى هي المثالية النموذجية الموجودة فقط في عالم المثل، الثانية هي الطبيعية الموجودة في عالمنا، وهي محاكاة للأولى التي في عالم المثل، ومن ثم فإن تعدد الأشجار في الطبيعة دليل على نقصها، ثم الثالثة وهي التي يصورها الشاعر وتكون محاكاة للمحاكاة .

–أيضا يشبه أفلاطون عمل الشاعر بالمرآة التي تقدم صورة فوتوغرافية حرفيه للواقع وبذلك فهو يقدم لنا صورة مزيفة ، أما إذا حرف في تلك الصورة بزيادة أو نقصان فهو كاذب .إذن فعمل الشاعر ليس له قيمة أو فائدة لأن ما نحتاجه هو الحقيقة الأصل، وليس الصورة القائمة على المحاكاة.

-لا يمكن فهم آراء أفلاطون تلك ألا إذا أدركنا أنه ينطلق من منطلق فلسفي فكري عقلاني، وبالتالي فهو يرى صراعا بين الشعر والفلسفة، فالشاعر في نظره يتعامل مع الأشياء عاطفيا ومن ثم فهو بعيد عن استخدام العقل وبالتالي بعيد عن الحقيقة.

-موقف أفلاطون هو رفض الشعر والفن لأنه لا يعالج الحقيقة بل يكتفي بتمثيل معطيات الحواس التي هي مسخ للحقيقة بثلاث درجات، فالحقيقة لا تلتمس عند الشعراء الذين يخاطبون العواطف بل عند الفلاسفة الذين يخاطبون العقل.

-أيضا يدين أفلاطون الشعراء من خلال مصدر الإبداع المتمثل في الإلهام عن ربة الشعر ومن ثم فالشعراء يقذفون بما يفيد وما لا يفيد الجمهور على حد سواء، فهم لا يؤلفون عن حذق وصنعة وعقلانية، ومن ثم لا يمتلكون زمام الأمر فيما يقولون، لذلك لا يمكن اعتبارهم مرشدين للسلوك والأخلاق.

-من خلال ما سبق نلاحظ أن بحث أفلاطون في الأدب كان منطلقا من بيان أثره في السلوك الإنساني والأخلاق، وقد أدان الشعر من منطلق الأخلاق والحقيقة ومن ثم فقد رفض فكرة الفن للفن، ونادى بالأدب الملتزم، مركزا على وظيفة الأدب.

-قبل أفلاطون بعض أنواع الشعر الملحمي والديني الذي يمجد الأبطال والآلهة والعظماء وقد اش ط عدم تعارض القصائد مع الخير و أن يطلع حراس الفضيلة على قصائده، لكن الموقف العام أنه طرد الشعراء من جمهوريته الفاضلة أو لنقل ضبط أعمالهم.

كل أفكار أفلاطون ليس لها قيمة كبيرة في حد ذاتها، وإنما قيمتها بما ولدته من دافع للبحث المعمق عند تلميذه أرسطو، فقد قامت نظرية المحاكاة على أفكار أرسطو.

-يمثل أرسطو (322 ق.م) القطب الثاني في النقد اليوناني، وقد ألف كتاب (فن الشعر) كأول كتاب نقدي وحمله ردوده على أستاذه أفلاطون .أي أن أفكار الأول كانت مثيرة للثاني.

-يمثل هذا الكتاب قطب النقد الأوربي وخصوصا الكلاسيكي ومن ثم يعده كثيرون أقدم وأهم كتاب ألف في مجال النظرية، ولم يصلنا كاملا ، وقد ترجم إلى العربية في القرن الثالث وكان ل اهتمام النقاد والفلاسفة العرب .

-يمكن القول إن نظرية المحاكاة ارتبطت بأرسطو أكثر من أفلاطون فقد ألف أرسطو قاصدا الكتابة عن الأدب، متبعا منهج الاستقراء والوصف، وليس عرضا مثل أستاذه الذي كانت آراؤه أقرب إلى التأملات.

-الشعر شكل من أشكال المحاكاة :يرى أرسطو أن الشعر محاكاة ولكنه يمنح مصطلح المحاكاة مفهوما جديدا، فإذا كان أفلاطون قد عمم المحاكاة على كل شيء في الواقع، فجعله محاكاة للمحاكاة، فإن أرسطو قد قصر المفهوم على الفنون فقط .

-كما رفض أرسطو فكرة أن الفن مثل المرآة ينقل الأشياء حرفيا.

-يرى أرسطو بأن الفنان حين يحاكي فإنه يتصرف في المنقول، بل إنه يحاكي ما هو كائن وما يمكن أن يكون احتمالا، فحين يرسم الرسام منظرا للطبيعة لا يجب أن ينقله كما هو، بل عليه أن يحاكيه وير ه كأفضل ما يمكن أن يكون، فالطبيعة ناقصة والفن يتمم ذلك النقص، إذن فالشعر مثالي وليس نسخه طبق الأصل.

-ما يصنع الشعر عند أرسطو ليس الوزن والموسيقى وإنما عنصر المحاكاة العام، محاكاة ما يمكن أن يقع وليس محاكاة ما حدث فعلا، فالمستحيل الممكن خير الممكن النادر الحدوث والعبرة في ذلك بمقدرة الشاعر أو الفنان على الإقناع.

-موضوع المحاكاة :لا يحاكي الشاعر عند ارسطو مظاهر الطبيعة ومدركات الحواس فقط بل كذلك الانطباعات الذهنية وأفعال الناس وعواطفهم، فالتراجيديا تحاكي العظماء والكوميديا تحاكي من هم أقل مستوى، والشعر عنده محاكاة لفعل الشخصية حيث تحاكي سعادتها وشقاءها أي القول بموضوعية الأدب.

-الشعر لا يصور شجاعة البطل المذكور بالذات، ولكنه يصور الشجاعة الإنسانية عامة ممثلة في هذا البطل بشكل معين من أشكالها، لذلك يعتبر أرسطو الحدث أو الحبكة أهم أجزاء التراجيديا .

-طبيعة الشعر الفلسفية :يرى أرسطو أن الصراع بين الشعر والفلسفة صراع مفتعل مبينا الطبيعة الفلسفية للشعر فالشعر لا يروي أو يحاكي ما وقع بل ما يمكن وقوعه ومن ثم يكون الفرق بين الشاعر والمؤرخ.

-الشعر عند أرسطو يحاكي الحقيقة المثالية ا لمجردة مما يجعله أقرب إلى روح الفلسفة أو أعظم فلسفية من التاريخ، فهو لا يشوه الحقيقة ولا يبتعد عنها بدرجات كما زعم أفلاطون ولا يناقض الفلسفة ولكن يسعى إلى الكشف عن الحقيقة بطريقته ووفق منطقه الخاص.

-نشأة الشعر ومصدر متعته:لم يوافق أرسطو على ربط الشعر بقوى خارجة عن الطبيعة الإنسانية، بل جعل الدافع له مرتبط بطبيعة الإنسان من خلال غريزة المحاكاة وحب الوزن والإيقاع، ومن ثم فقد ربط الأدب والفن بالطبيعة الإنسانية.

-جعل أرسطو الشعر ظاهرة إنسانية وجزء من النشاط الإنساني في ظل غريزة المحاكاة التي هي وسيلة للتعلم واكتساب المعرفة الذي يؤدي إلى المتعة، فالفن والشعر يعلمنا أشياء جديدة والتعليم متعة، وإذا لم يعلمنا جديدا فأننا نستمتع بمشاهدة ما كنا نعرفه، إضافة إلى المتعة الفنية.

-إن الشعر في نظرية المحاكاة ليس إلهاما خارجيا، بل يرى أرسطو أن الإنسان يرتقي في المحاكاة بقدرته على الدربة والممارسة، فالشعر صنعة تقوم على الدربة والممارسة، وبقدر تمرس الشاعر يكون تفوقه.

-وظيفة الشعر :تتمثل في تطهير نفس المتلقي، فالفن عموما يساعد على تحقيق التوازن داخل نفس المتلقي حين ينفره من الشر ويصور له الحق والخير طريقا للسعادة.

-يرى أرسطو أن التراجيديا تنمي عاطف الشفقة والخوف لتجعل المشاهد أكثر قوة، من خلال التطهير. فهي تسمح لنا بتصريف عواطفنا المكبوتة الزائدة (البكاء في التراجيديا والضحك في الكوميديا)، ومن ثم نكون أكثر توازنا من الناحية العاطفية فنشعر بالراحة بعد المشاهدة.

-التراجيديا مثلا تجعلنا نرى الألم دون أن نعيشه وترينا العذاب دون أن نتعذب كما في (أوديب ملكا) ، كما تجعلنا نشعر بالسرور من خلال مقارنة عذاباتنا في الحياة بعذاب الشخصية في التراجيديا فنشعر بالراحة، ونكون أكثر رضى بحالنا، وانسجاما مع حياتنا.

-أيضا يجب ألا يكون البطل مثاليا بشكل مطلق بل مثلنا ليكون أكثر قدرة على التأثير في المتلقي، حين يحس بقربه منه.

-الشكل الأرقى للمحاكاة الشعرية :من خلال مقارنة أرسطو بين هذين الفنين وجد أن موضوعهما محاكاة الأبطال العظماء، ولكنهما تفترقان في طريقة المحاكاة، ومن ثم فقد فضل المسرحية الشعرية لأنها تتضمن عناصر الملحمة إضافة إلى الموسيقى والجمهور.

-بشكل عام ركزت نظرية المحاكاة على أثر الشعر في المتلقي (وظيفة الأدب) من خلال المعيار الأخلاقي والوظيفة الاجتماعية للأدب .فلم تركز نظرية المحاكاة على ذاتية الشاعر وعواطفه وانفعاله وخياله وما إلى ذلك، بل كان ور اهتمامها منصبا على ما بعد النص.

-كان لأرسطو أثر في الإكبار من شأن الصنعة والتأثير في التوجيه الكلاسيكي بعامة للأدب.

- تسود أفكار نظرية المحاكاة في المجتمعات التقليدية القائمة على الفكر الجمعي أكثر من الشخصي أو الذاتي، حيث يحرص المبدعون على تكريس تلك الأفكار الجمعية التي ينظر إليها على أنها المثال والنموذج الذي ينبغي أن يكون.

-استندت نظرية المحاكاة إلى فلسفة مثالية موضوعية، حيث يسعى الأدب إلى الارتقاء بعالم الحياة المعاش نحو المثال والكمال وفقا للتصور الجمعي لذلك المثال.

-ارتبطت هذه النظرية بالطبقة الاجتماعية العليا (الأرستقراطية). ووفقا لاختلاف وتفاضل عالمي المثال والمحسوس فإن تفاضلا اجتماعيا يكون بين الطبقة العليا في لتمع والطبقة العامة، حتى إن نظرية المحاكاة تمجد القيم العليا وتفضل التراجيديا التي تصور حياة وقيم تلك الطبقة.

-ازدهرت هذه النظرية في عصر النهضة الأوربي وسيطرت على المشهد الأدبي حتى القرن الثامن عشر الميلادي، وقام على تصورها ذلك المذهب الأدبي الكلاسيك الذي يمجد القديم الجيد. في ظل ارتباطها بالطبقة الاجتماعية العليا (الأرستقراطية).